مقتطفات مترجمة من كتاب

Friedrich Christian Delius
Mein Jahr als Mörder
Rowohlt Berlin Verlag
Berlin 2004
ISBN 3-87134-458-3

الصفحات:7-15 ,20-25

فريدريش كريستيان دليوس
قاتل لمدة عام

ترجمة: سمير جريس

© Litrix.de 2004

[الصفحات:7-15 ,25-20]

صوت حر من العالم الحر

كُلفت بأن أصبح قاتلاً عشية عيد القديس نيقولاوس ، في ساعة الغسق. بين لحظة وأخرى أعلنت موافقتي بعد أن حملتني الرعونة على أجنحتها. صوت متماسك من الهواء قام بتحريضي على القتل؛ صوت من الأثير اللامتناهي، ليس شيطانا ولا إلهاً، بل صوت مذيع نشرة الأخبار الذي قرأ خبراً، وفي ثناياه سمعت من ينفخ في أذني مطالبا بأن أصبح قاتل السيد ر. صوت من إذاعة القطاع الأمريكي، وفوق ذلك في عيد القديس نيقولاوس – وعندما أعترف اليوم بعملية الاغتيال المتقادمة فإنني أتفهم موقف كل من يعتبرني، أو يعتبر الذي كنته آنذاك، مجنوناً.

لا أحد يعرف سري، لا الشرطة لاحظت شيئا عن نوازعي الإجرامية الخفية، ولا أفضل أصدقائي. ولأنني في نظر الناس إنسان هادئ ومسالم، فإن أحجامي عن الكلام في موضوعات القتل والعنف لم يثر ريبة أحد في يوم من الأيام. ولكن شيئا فشيئا تنمو الرغبة داخلي الآن كي أفتح الباب على مصراعيه لأشباح الذكرى، وأتركها تأخذني معها إلى الشقة الصغيرة في الدور الأرضي حيث كان أحد الطلاب يُشغّل جهاز الراديو، ويمد المدفأة الحجرية بقطع الفحم، ويضع الماء على النار لعمل فنجان من النيسكافيه، ولا يستطيع مقاومة شذا كعك عيد الميلاد من الطرد الذي أهدته إياه أمه بمناسبة فترة "الأدفنت" السابقة لعيد الميلاد.

لا أحد سيصدقني على الفور عندما أقول إنني قاتل، ولذلك لا بد أن أرجع قليلا إلى الوراء، فالمدفأة والكعك هي أيضا جزء من سلسلة القرائن والأدلة على ما وقع. وطالما أنني لا أستطيع أن أستبعد أن كعك "الأدفنت" قد أثار عندي شهوة القتل، فإنني لن أتجاهله في اعترافي المكتوب. التحقيق لا بد أن أجريه أنا مع نفسي. هذا هو سوء حظ مَن لا يُقبض عليه متلبساً. ومثلما هو الحال في كل رواية بوليسية جيدة فإن الدوافع والملابسات والخجل من الجريمة لا يمكن الكشف عنها إلا تدريجياً.

تتابعت الأنباء من الراديو، جمل عادية مصاغة بلغة الأخبار المعتادة. لم أكن أصغي لما يُقال، كنت أشعر داخلي بالتعب الذي تراكم خلال شهر ديسمبر الرمادي المطير. كانت الغرفة ما زالت باردة، فالمدفأة الحجرية تأخذ وقتها، وهكذا تركت نفسي أتدفأ بصوت المذيع، هذا الصوت الأليف من درجة "الباص"، الذي كان يتحول كل ساعة الصوت الحر من العالم الحر. قطع الكعك كانت قاسية ولها حلاوة بائسة. أخذت أنتظر النشرة الجوية، ثم موتسارت أو بيتهوفن قبل أن أغلق الجهاز. مثل كل المحطات في برلين لم تخل إذاعة القطاع الأمريكي من البروباغندا، غير أنها كانت تضم أفضل المذيعين ذوي النبرات الموحية والذبذبات العميقة، أصوات رجال مدافعة وحاسمة مثل قوات الدفاع نفسها. كنت مستغرقا في الاستماع إلى أنغام الصوت العميق القوي أكثر من انتباهي إلى الأخبار نفسها، إلى أن تناهى إلى سمعي النبأ المألوف:

أصدرت هيئة المحلفين بمحكمة ولاية برلين حكما ببراءة القاضي السابق بالمحكمة الاتحادية العليا هانز يواخيم ريزه من تهمة القتل الموجهة إليه في سبع حالات.

لم يكن بالنبأ ما يثير الاهتمام، كما أنه لم يكن مفاجئا، ولا حتى في تلك الفترة. أي حكم آخر كان سيمثل مفاجأة. رجال القانون لن يدينوا أبدا رجال قانون، حتى لو كان أولئك القانونيون من النازيين الذين أصدروا ما يزيد على مائتي حكم بالإعدام، وبهذا أكدت المحكمة رأيا شائعا. رغم ذلك كان خلف هذا النبأ خبر آخر هامس. كأنني سمعت بأذن ثالثة، بأذني الباطنية حيث تظل المتناقضات عالقة، سمعتُ عبر الأثير واستشففت من مقاطع الحروف التي تناهت إليّ ذبذبات رسالة سرية تطالب في وضوح: لا بد أن يرسل أحد إشارة ويفعل شيئا، لا بد أن يقتل شخص هذا القاتل، وستكون أنت هذا الشخص.

كلا، لم أشرب خمراً، ولم أكن تحت تأثير المخدرات، ولم أترنح من سكرة الحب في فراش صديقة. كنت في منتهى الوعي والانتباه عندما وصلتني الجملة، متعبا قليلا فحسب: لا بد أن يرسل أحد إشارة ويفعل شيئا، لا بد أن يقتل شخص هذا القاتل، وستكون أنت هذا الشخص!

وبينما كان المذيع يقرأ توقعات الأرصاد الجوية لطقس نهاية الأسبوع، كان خيالي قد انطلق من عقاله مندفعا إلى الأمام: أنا ومعي مسدس، طلقة، رجل يسقط بلا حراك، هذا هو الأمر ببساطة، هذه هي التكملة المنطقية لنشرة الأخبار. لم يكن ليثير استغرابي لو سمعت من الراديو النبأ العاجل التالي: كما علمنا لتونا فإن طالبا برلينياً اتخذ قرارا بقتل القاضي ر.

أنت تخرف! أنت بالذات! انس الأمر! هكذا حاولت أن ألجم خيالي. لم يكن الأمر مضحكا، كلا، بل مثيرا للسخرية فحسب، سخيفا، لا يستحق مجرد التفكير فيه. خلاص، انتهينا!

إن الشجاعة تعوزني كي أمسك حجرا بيدي، ناهيك عن أن أرميه. أنا جانياً، قاتلاً، هذا التصور لم يكن متهورا فقط، بل مستحيلا ومجنونا وأحمق. ولكنني أخمن اليوم أن هذا التصور أطلق الشرارة داخلي بسبب عبثيته تحديداً، فألهب خيالي المرهف الذي راح يقدم الصور المناسبة: وجدت نفسي أمثّلُ الدور الرئيسي، فأقف متكئا إلى مدخل أحد المنازل في شارع "فيتس ليبن" أمام محكمة الاستئناف في انتظار الذي قتل باسم العدالة. لم أنتظر طويلا حتى رأيته خارجا من البوابة الرئيسية، رجلا مسنا لا يلفت النظر، هبط درجات عدة، ثم سار في اتجاه سيارته، ولحظتها – وبعد أن أحكمت التنشين - أرديته قتيلا بثلاث رصاصات، وبخطوات هادئة ولّيت الفرار في اتجاه بحيرة ليتسن حيث رآني العابرون جميعا، ورغم ذلك لم يوقف أحد مشيتي الواثقة المختالة: شاب، بين العشرين والخامسة والعشرين، حوالي 180 سم، رشيق، أشقر، يرتدي جاكتة زرقاء غامقة واقية من الريح وبنطلون جينز أزرق – إلى أن أعلنت السيرينات من اتجاه الكاتدرائية اعتقالي على نحو احتفالي منهيةً دوري في الفيلم.

فيلم قصير بسيط: نذل وشاب وطلقة. فيلم "مسلوق"، هذا واضح، إلا أنني شعرت على الفور بالتأثير المدغدغ للحواس: سعادة أن تكون - للحظات قليلة - بطلا ومنتقماً للعدالة.

تأخر الوقت كثيرا، ولم يعد أمامي اختيار. إذ إن هذا كله - وهو ما يمثل صعوبة إضافية للأمر – قد حدث في عام 1968.

قاتل والد الصديق

لا أتذكر إلا ما حدث بعد ذلك بساعات، عندما كنت راقدا بجوار كاترين التي استدارت على جنبها راضية مرضية، ثم استغرقت في النوم. كلا، لم تكن فرنسية، بل مصورة لا بأس بها، هربت من ماركترديفيتس إلى برلين، حيث منحت اسمها الألماني "كاتارينا" بعض النبل، وحولته، مسايرةً في ذلك موضة العصر، اسما فرنسيا، وذلك بمط حرف الياء مطا طويلا عند نطق الاسم. مع كاترين كنت أسير في الشارع، وأنام في الفراش. كان حباً، إذا لم أكن مخطئا، قد استغنى عن كلمة "الحب". كنا نخوض النقاشات المعتادة في السياسة وعلم الجمال، ولكنني لم أسمح لها بأن تعرف كلمة واحدة عن مستقبلي المهني كقاتل.

حسدتُ كاترين على نومها، ومع الحسد استيقظت داخلي أصوات وهلوسات الأمسية السابقة. مثلما يحدث في الفترات التي تسبق القرارات الحاسمة أو الامتحانات والمغامرات، فإن المخ لم يستسلم للنوم. أخذت المشاعر المتضاربة تتأرجح بي، ورحت أنا أعذب نفسي بأحاديث مع الذات. لقد دبر لك أحدهم مقلباً، قلت لنفسي، هذا كمين. مَن ينفعل اليوم بسبب النازيين القدامي؟ فلتترك ذلك لصبية الكشافة المستعدين دوما للغضب والاستياء. سوف يعترضون على الحكم بأصوات متعبة

مبحوحة، فليفعلوا ذلك، هذا جيد، حتى لو لم يؤد إلى أي نتيجة. سيرسمون علامات التعجب في الهواء، وسيشعرون كالعادة بالإهانة وقلة الحيلة، آخر الصالحين على وجه الأرض، ثم يذهبون إلى بيوتهم، إلى أن تجيء القضية التالية، ولن ينتظروا طويلا حتى يصدر حكم بالبراءة على قاتل نازي.

كانت كاترين تتنفس بانتظام، لمست بحذر كتفها، شممت جسدها المُشتهى، وحاولت أن أهدئ من روعي: نم، فلتنم، هناك ما هو أفضل من ضرب أعداء أمس الأول أو قتلهم، واحد من مئات الآلاف من المجرمين الذين يسيرون في الشارع دون أن يعترض سبيلهم أحد. فليواصل عواجيز الصليب النازي المعقوف رحلاتهم إلى العمل بالسيارة التي يقودها السائق الخاص، وليقم المتقاعدون بجولاتهم التنزهية، وفي أيام الآحاد فليشحذوا سكينهم أمام قطعة اللحم المحمرة التي يتصاعد منها البخار – ما دخلي أنا في الموضوع!

ليس هناك أمل في تغيير شيء، قلت لنفسي، لن يستطيع المرء أن يحبسهم كلهم. إنهم كثيرون جدا، يجلسون في كل مكان، في الإدارات الحكومية وفي المحاكم، في المؤسسات والشركات الكبيرة وفي الجامعات، ليس هذا سراً، هذه حقيقة مبتذلة، وعهر يومي معتاد، شيء عادي لا يثير إلا الضيق، انس الأمر، هذا موضوع لا يعنيك، فلتظل خارجه. إنهم يتقاسمون السلطة فيما بينهم، أو ما زالوا يعيشون على سلطتهم السابقة، يقضون غروب حياتهم في مكاتب الرؤوساء، في المقاعد الوثيرة أو على أسرة بيوت المسنين، أو يعقدون الصفقات المربحة مثل هيرمان يوزيف أبس، أو والد كاترين الذي تخصص في تجارة الأدوات المنزلية بعد أن كان يوماً عمدة نازيا مجتهدا في بلدة ما بالبفالتس العليا. فلتكن له من الشاكرين لأنه أنجب ابنته الجميلة الذكية وانسه، انس كل هؤلاء!

يبذل الإنسان جهداً كي ينسى، ولكن ما يحدث هو العكس. هذه الآلية البسيطة لم أكن أعرفها في تلك الليلة. رحت أفكر في أشياء مختلفة لأشتت انتباهي، بحثت عن النوم، نسيت ... استغرقت ... وبسرعة انبعثت في رأسي الصورة الحاسمة: صديقي أكسل على المائدة في مطعم الجامعة، وبجانبنا الجريدة المفتوحة على صفحة عنوانها يدور حول القضية التي بدأت ضد هذا القاضي الذي أصدر في المحكمة الاتحادية العليا ما لا يقل عن 230 حكما بالإعدام. وعلى الفور سمعت الجملة المريرة الفائضة بالاحتقار التي علق بها أكسل على الصورة، هذه الجملة ترددت على سمعي الآن – في السرير – مثل إلهام شرير. إنه هو الذي لقق الحكم على أبي، هو وفرايزلر.

هذه الحكاية المظلمة، حكاية والد أكسل الذي قتله النازيون لأنه كان يكافح ضدهم، كانت ترافقني منذ الطفولة. الأب – كنت قد عرفت ذلك – أسس مع روبرت هافه مان وآخرين إحدى جماعات المقاومة، ولهذا أُعدم عام 1944، قبل العشرين من يوليو.

الآن، في أعماق ليلة القديس نيقولاوس، أدركت أنه هو الذي أمر بقطع رأس غيورغ غروسكورت، والد أعز أصدقائي! بالاشتراك مع رولاند فرايزلر! وها هو يطلع من القضية بلا أدني عقوبة كالشعرة من العجين!

في تلك اللحظة – هكذا أستطيع اليوم أن أدعي – تمرد الطفل داخلي، والباقي أتركه للمحللين النفسيين. في أقصى حالات اليقظة وبعيون مفتوحة في الظلمة أدركت لماذا لازمني التفكير في القاضي، لماذا ركبني كشيطان، لماذا طاردتني الوساوس وراحت تحثني على ارتكاب الجريمة.

لم أعد أسمع صوت قارئ نشرة الأخبار بل صوتي أنا: لا بد أن يقتل شخص هذا القاتل، وهذا الشخص هو أنت.

ولم تكن هذه الفكرة مستهجنة في نهاية العام الذي أغتيل فيه مارتين لوثر كينغ وروبرت كينيدي، العام الذي كاد زعيم الطلبة رودي دوتشكه يلقى فيه مصرعه أيضا، عام المذابح الكبرى في فيتنام والمكسيك، عام الانتفاضة في باريس وحركة المقاومة في براغ ضد الدبابات الروسية. في كل شهر انتهاكات جديدة لروح العدالة، كل شهر غضب وتهييج للمشاعر. كل مأساة من هذه المآسي كانت تؤكد الرغبة في التغيير والتمرد والحرية. السلطة فاسدة، سواء كانت في موسكو أو في

واشنطن، في بون أو باريس، وكل إنسان يطلب أبسط الحقوق الأساسية ينال بلا رحمة نصيبيه من القمع. إلى هذا الحد كانت صورة العالم بسيطة، إلا أن السؤال كان معقدا: كيف يدافع الإنسان عن نفسه؟

غمرني الهدوء، وحاولت أن أقنع نفسي أن فعلا كهذا – إذا ارتكبته – لن يكون سوى فعل خيّر. مساهمة صغيرة في تنوير المجتمع، في الديمقراطية والعدالة. تماما مثلما فعلت بيآته كلارسفلد قبل أربعة أسابيع حينما صفعت المستشار الألماني، بل وأمام كافة الأعضاء المجتمعين من حزبه.

حتى هذه الجزئية تمعنت فيها: في السابع من نوفمبر 1968 نال المستشار الصفعة الشهيرة، وأنا أروي هنا ما حدث في ليلة السادس وفجر السابع من ديسمبر. ورغم أنني أعرض نفسي لشبهة أن أبدو محض مقلد للآخرين، فإنني لا أريد أن أُتهم بالجبن أمام الوقائع.

كلارسفلد إذن، هذه الأسطورة العتيقة: كانت قد حضرت إلى اجتماع الحزب الديمقراطي المسيحي بهوية صحفية. المستشار يعطي توقيعه لمعجبيه، وهي تتسلل من الخلف، ليس من الأمام حتى لا يهرب منها، وعندما استدار كيسينغر صفعته صفعة قوية صائحة: نازي، نازي! بعد الظهر، وفي قضية مستعجلة، وجهت إليها تهمة الإيذاء البدني والإهانة المتعمدة، لأنه لا يحق للمرء أن يطلق وصف "نازي" على عضو سابق في حزب العمل الألماني الاشتراكي القومي، ورجل كان مسؤولا في وزارة الخارجية عن الرقابة والبروباغندا الأجنبية. سنة حبس مع التنفيذ الفوري – والعاقبة؟ تصفيق من كافة أنحاء العالم، بطلة يتحدث عنها الناس، امرأة لن تُنسى، نجم يحبه البعض ويكرهه آخرون غير أنه يُصور في كل مكان وتُجرى معه المقابلات الصحفية.

سمعت شخيرا خافتا جواري، فوضعت يدا رفيقة على خصر كاترين، وحاولت أن أخمد جذوة الرغبة التي استعرت داخلي وحثتني على إيقاظ النائمة بحنان، وإشعال نار شهوتها مرة أخرى، وأنسى كل هذه الحكاية البلهاء. كانت مستغرقة في النوم، وكل اقتراب منها كانت ستأخذه على محمل سيء. عندئذ أفزعني السؤال: ماذا ستقول كاترين عن هذه الفكرة التي ملكت علي نفسي؟ الإجابة واضحة. لذا قررت ألا أسألها، وألا أخبرها أبدا بما يدور في رأسي.

في تلك السنوات لم أكن قد وثقت بعد بفطرة المرأة. كنت أفكر مثل الجنود وأبطال أفلام الكاوبوي: الرجل يأخذ قراراته الصعبة وحده، فالمرأة تفكر بقلبها، وهو أمر لا يزيد الأمور إلا تعقيدا. ما أقلقني بالفعل كان السؤال التالي: كم سنة في السجن تكفي لتدمير حبنا؟ خمس، ثماني سنوات؟ أم نصف سنة؟

ولأنه كُتب عليّ أن أقضي نصف الليل أفكر وأفكر، فقد فضلت أن أطلق تكهناتي حول أشياء ملموسة، مثلا الأداة المناسبة للاغتيال. فكرت في المسدسات والسم والهراوات والسكاكين، غير أن خيالي كان محدودا فقيرا، مثل خيال الإنسان العادي، المبتدئ. لم تكن لدي خبرة في الإجرام، ولا حتى كنت من عشاق الروايات البوليسية. رحت أتخيل إمكانيات عديدة، والقاتل في أوضاع مختلفة: أنا والمسدس، أنا وزجاجة السم، أنا والهراوة، أنا والسكين. لم أتحمس لأي شيء من هذا، كل تلك الأدوات بدت غير مقنعة، كما في الأفلام الصامتة أو الرسوم الكاريكاتورية. وهكذا أجلت التفكير في المسائل المتعلقة بالتنفيذ العملي. اضمحلت كل خطط القتل الجميلة، وتأقلم إيقاع تنفسي مع تنفس صديقتي، ولا بد من أنني غرقت سريعا في أمواج النوم الناعمة.

بالمناسبة، إنني أدين لأكسل أيضا بالفضل في اختصار اسم القاضي بالحرف (ر). إن من أمر بقطع رأس أبي، يستحق أن أقطع على الأقل عدة حروف من اسمه الكريم، حتى وإن بدا الأمر صبيانياً. يدرس أكسل علم النفس، لذا أقنعتني حجته.

قطع الرأس

لا بد من أن أقص الآن حكاية أكسل، ولكي أحكيها ينبغي الرجوع إلى الوراء كثيرا، إلى سنوات الخمسينات البعيدة، بل إلى الأربعينات، ولا بد من أن نخرج من برلين، وننتقل إلى سلسلة الجبال الوسطى في ولاية هيسن، ونبحث عن بلدة "فيردا" الواقعة بين مدينتي "باد هرسفلد" و"فولدا"، ونسافر على الطرق الزراعية في الشمال عبر رينا، ومن الجنوب عبر روتنكيرشن، من الشرق عبر أونترشتوبل، ومن الغرب عبر فتسلوس أو لانغنشفارتس، ونقترب إلى وسط الوادي، ناحية الكنيسة ذات البرج السميك بقمته البَصلية، في اتجاه المنازل العريقة المبنية بالخشب ومخازن الغلال والقصرين، وفي الخلف المروج الصاعدة والحقول الواقعة أمام الغابات التي تغطي قمم الجبال المحيطة بالقرية.

هذا العش النائي يعلب دورا حاسما كمكان للقصص التي أريد أن أبوح بها لكم. دافع جريمتي ينبع من هنا.

سنستمع الآن إلى الحديث الذي جرى بين طفل المدينة أكسل الذي كان يعيش في فيردا وطفل القرية الذي كنته آنذاك. إنهما في الثانية أو الثالثة عشرة من العمر، وتربط بينهما صداقة متينة. كعادة أكسل في العطلات الصيفية كان قد جاء مع أخيه رولف من برلين ليقضيا بعض الوقت في مزرعة العمة. طفل المدينة وطفل القرية يجريان ذات عصر يوم أحد في طرق الغابة الواقعة فوق القرية، وكما تعودا أن يفعلا عندما يفقدا الرغبة في اللعب مع الأخوة والصبية الآخرين. ما زالت الشمس في كبد السماء، النسيم يداعب حقول القمح، والحصاد لم يبدأ بعد، ثم تأتي اللحظة التي يشكو فيها طفل القرية من أبيه الصارم الذي يختبره يوميا – عدا أيام الآحاد - فيما حفظه من مفردات لاتينية، فيقول له طفل المدينة: عليك أن تشعر بالفرح لأن لديك أباً. يفزع طفل القرية لأنه يعلم منذ وقت طويل أن والد الصديق قضى في الحرب، ولكن بطريقة تختلف عن الآباء الآخرين. العصافير تطير وتحلق فوق الدروب، سنابل القمح وعيدانه تتماوج مع الريح في نعومة، حمرة زهور الخشخاش لم تكن دموية، فهي تلمع وتضيء إضاءة أجمل من الدم. بعد صمت طويل يتحدث طفل المدينة عن أبيه: الطبيب الذي كان معارضا للنازيين الذين بدءوا الحرب وتسببوا في موت الملايين من الناس. طفل القرية له أصدقاء آخرون لديهم بدلا من الآباء صور الآباء فحسب، الآباء اختفوا خلف كلمات مثل "سقط صريعا" أو "مفقود" أو "قُتل في الحرب"، صور يمكن مشاهدتها على الطاولات. كانت هناك حرب في الماضي، هذا يعلمه طفل القرية، وكان هناك قائد، "فورَر"، تحيط به الأسرار، يطلقون عليه "هتلر" أو "أدولف"، وهي أسماء تُنطق بسرعة واختصار، في سرية وتحد. ولكلمة "النازيون" علاقة ما بالأمر، تلك الأشكال القاتمة التي لا يتحدث عنها أحد إلا بصوت خافت وبعد أن يتلفت حواليه. غير أنه لم يسمع أبدا بأب مثل هذا. ولأنه كان معارضا للحرب، يقول طفل المدينة، فقد قتلوه، هؤلاء المجرمون. في ثانية واحدة ينتاب طفلَ القرية نوعان من المشاعر: الفزع من أن الألمان قتلوا ببساطة ألمانيا، طبيباً؛ والرعب من الإدانة القاسية للنازيين ووصفهم بالمجرمين. هذا جديد، جارح في وضوحه، إنه – بطريقة ما – يتجاوز الحدود. أبوه أيضا يدين الحرب. أسوأ شيء في الدينا، وأكثرها إثارة للحزن، هكذا يقول، افرحوا لأننا نعيش في سلام. طفل القرية يستشهد بأقوال أبيه أمام صديقه، ومع ذلك لم يقتله أحد، بل كان أسيرا لدى الفرنسيين. بسرعة يبادره بالرد: ولكن أبي قالها أثناء الحرب، أبوك بعدها.

القنابر تحلق عاليا، دفء الشمس أمسى مزعجا، طفل القرية يشعر الآن باحمرار وجهه. كان يريد أن يتباهى بعض الشيء بالفترة التي قضاها أبوه في الأسر، وهو قضى ثلاث سنوات على كل حال، والآن يشعر بالانكسار والخجل.

فترة صمت طويلة من جديد، ثم السؤال: وهل قتلوه بالرصاص؟ صمت. لا. صمت. شنقوه؟ صمت. لا. صمت. كيف قتلوه إذن؟ صمت. حدث ذلك في السجن. هيا، قل. لقد قطعوا رأسه، بماكينة ما، بشيء كالبلطة.

لحسن الحظ وصل الطفلان إلى حافة الغابة، مكان ظليل به جذوع شجر مقطوعة ليجلس عليها الناس. لم ينطق طفل القرية بكلمة. في منتصف الوادي تقع البيوت ومخازن الغلال والحظائر، سكون، ليست هناك جرارات زراعية تسير في الطرقات يوم الأحد، ولا عربات تجرها الدواب، الخنازير والبقر هادئة لأن لديها ما تأكله. في وقت العصر تصمت حتى الكلاب والدجاج والأجراس. الضجيج الوحيد: القنابر فوق حقول القمح. قطعوا رأسه، صدى هاتين الكلمتين الذي يصم الآذان يتردد

بلا صوت عبر الوادي، ثم يرجع الصدى ويبتلعه الدماغ. قطعوا رأسه، إنهم يفعلون ذلك مع الدجاج، إنهم يقبضون عليه من الجناحين، ثم يضعونه على القرمة حيث تحاول التملص، ثم ترفع الفلاحة السكين - فهذا عمل تقوم به النساء - وتقطع الرأس، تتدفق الدماء، ويقع الرأس على الأرض، ترتجف الدجاجة وترتعش مرة أخرى. ذات يوم رأى طفل القرية الدجاجة تطير في الهواء بلا رأس، بضربات محمومة من الجناحين طارت فوق نصف الحوش، ثم فجأة، وكأن رصاصة أصابتها، وقعت. قطع الرأس، الانتظار حتى تنزف الدجاجة كل دمائها، نتف الريش، الغسيل، التمليح، ثم إلى الحَلّة، هذا هو قَدَر الدجاج. الأرانب مثلا لا تقطع رؤوسها، الخنازير تقتل بتصويب ما يشبه السهم الصغير على الجبهة، البقر يُساق إلى السلخانة، ليس هناك حيوان آخر يُقطع رأسه، لماذا يقطعون إذن رأس إنسان؟ لقد تُرك طفل القرية وحيدا مع كلمتي "قطعوا رأسه"، لا يستطيع أن يتحدث عن ذلك مع الصديق الذي باح بالكثير. إنه يظل وحده مع الكلمتين: قطعوا رأسه.

تربط الصداقة بين الطفلين منذ أن تعلما المشي ومنذ أن استطاعا الكلام، لقد كبرا معا تحت سقف واحد تقريبا. هجر أكسل ورولف برلين في الصيف قبل الأخير في الحرب، وسافرا إلى جدتهما في الأرياف التي استأجرت غرفة في بيت الكهنة الملحق بالكنيسة، هذه الجدة هي والدة أناليزه غروسكورت. منزل العمة الفلاحة – أخت غيورغ غروسكورت - كان يقع مباشرة بجانب بيت الكهنة. بعد إعدام زوجها هربت السيدة غروسكورت إلى هنا أيضا، العائلة موزعة على منزلين متجاورين، لا يفصل بينهما سوى باب الحديقة. لم تسقط على فيردا قنابل، في فيردا توفر الطعام، بعد ذلك جاء الأمريكان، وكان الطعام متوافرا أيضا. الصديقان، وقد غادرا معا مرحلة الطفولة المبكرة البائسة، ظلا متلازمين، حتى عندما أصبح أكسل طفلا برلينيا بعد عامين من نهاية الحرب.

على مائدة العشاء حاول طفل القرية أن يسأل الأب: ماذا فعلوا بوالد أكسل، هل قطعوا رأسه؟ غير أنه لم يستطع أن ينطق سوى بالجزء الأول. لم يجرؤ على التفوه بصوت عال بكلمة "قطعوا"، لقد تلعثم بسبب حرف القاف، وقد ملأت صور الرعب رأسه أكثر من المعتاد. نعم، كانت تلك فترة سيئة، أجابه الأب، أعتقد أنهم أطلقوا النار عليه، لكنه كان شيوعيا. "لكن"، ماذا تعني "لكن" هنا، يسأل الطفل نفسه. شيوعي، كلمة مرعبة، رغم ذلك يتجرأ الطفل على توجيه سؤال آخر: ما معنى هذه الكلمة؟ الآن تأتي الإجابة أكثر ثباتاً وأقل تردداً: واحد مثل الذين يعيشون في المنطقة الشرقية، حيث لا حرية، وحيث يريدون أن يمنعوا العقيدة. تتقافز أسئلة جديدة في ذهن الصبي، إلا أنه لا يجرؤ على طرحها، لأن كل شيء يزداد تعقيدا وخطورة.

ثمة خطأ ما. إذا كان السيد غروسكورت مؤيدا للمنطقة الشرقية، فلماذا تعيش السيدة غروسكورت هنا، ولماذا يعيش أولادها هنا؟ ثم الحرية – إذا كانت هناك امرأة تبدو حرة وطيبة وكريمة ومحبة للسفر والرحلات فهي أم أكسل ورولف.

لم يستطع طفل القرية أن يسأل طفل المدينة إلا في الصباح التالي: هل كان أبوك شيوعياً؟ لقد كان يود أن يسأل: لماذا قطعوا رأس الشيوعيين؟ ولكن هذا السؤال يظل أيضا محشورا في زوره. تأتي الإجابة سريعة: من يقول ذلك؟ والديّ. يتطلع طفل المدينة طويلا إلى طفل القرية، نظرة معاقبة إلى الخائن. والداك لم يعرفا أبي، كل ما فعله أبي أنه كان يؤيد إنهاء الحرب والتوقف عن قتل البشر. ألم يكن، يسأل طفل القرية، في صف المنطقة الشرقية؟ لم يكن للمنطقة الشرقية آنذاك وجود، يا مغفل! وشرع يضحك، طفل المدينة، ضحكة قاسية متبرمة لا تصدر إلا عن ابن المدينة، ضحكة لم يسمع طفل القرية مثلها في حياته، لذا ولى الفرار والخجل يغطيه، وانزوى في منزله.

طفل القرية يعرف أيضا أن الحدود بين الشرق والغرب لم تقسم بلاده إلا بعد الحرب، غير أنه يشعر أن اللباقة تنقصه في مثل هذه الأحاديث، يشعر بأنه ضعيف وغبي. لا يستطيع أن يدهس على النيران التي أشعلتها الكلمتان "قطعوا رأسه"، أو أن يحاصرها أو يخمدها. أسوأ من ذلك هو الغضب المكتوم، الفشل أمام الصديق، بل خيانة الصديق. إنه في حالة بائسة لا تقبل العزاء، تماما كما حدث آنذاك، في الكارثة الأولى التي مر بها في الطفولة، عندما راح يبكي وينتحب لأنهم انتزعوا

صديقه منه. كان على أكسل ورولف أن يعودا إلى برلين، الحرب انتهت منذ عامين. يجب على رولف أن يذهب إلى المدرسة – ولكن لماذا لا يبقى أكسل في فيردا؟ طوفان الدموع كان هو الوسيلة الوحيدة التي واجه بها الفقدان الماثل، إلى أن جاءت السيدة غروسكورت وأهدته كتابا على سبيل العزاء، كتاب أطفال حقيقي، وليس كتابا مصورا فحسب، بل كتابا حقيقيا، يستطيع أن يطالعه لاحقا، بعنوان "رحلة نيلس هولغرسون".

أخذ طفل القرية يبحث عن الكتاب القديم، لكنه لم يجده، لذلك تجنب صديقه المحبوب حتى المساء. ثم تصالحا في الصباح التالي، وسحب طفل المدينة كلمة "مغفل". لسنوات عديدة لم يجرؤ طفل القرية أن يكسر الصمت المحيط بـ"الرأس المقطوعة" وألغاز الشيوعية.

هنا - أستطيع أن أقول للخبير النفساني في المحكمة - تجد الخبرة الحاسمة في حياتي. من هنا يمكنك أن تبدأ في تحليل شخصيتي. ومن دموع ابن الرابعة وأوهام طفل القرية عليك أن تتوصل - من فضلك - إلى النتائج.